سور الصين

ومنشئه

لرشوان أحمد صادق

قصة هذا السور من الاحاديث الشائقة التي تناولتها اقلام الكتاب القدماء والمحدثين شرقيين وغير شرقيين ، وان هذا السور ليرى واضحاً على الخارطات القديمة والحديثة . ولنا أن نتساءل هل هو الذي ورد ذكره في القرآن (سورة الكهف) ام انهُ شيد على بقايا سور أقدم منهُ وما هو الاَّ متمم للسور القديم . تقول المصادر الصينية [٣] انهُ لم يكن في الصين سد أقدم من السد الحالي الذي شيده الامبراطور تشن أحد اباطرة الصين وتذكر بعض المصادر الاوربية أن السور الحالي متمم لبقايا سور أقدم منه فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية [٣] العبارة الآتية « He (Chin) constructed the great wall. This had probably already existed in part but he completed and strengthened it»

وقد صرح المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري [٤] بان السد الحالي غير الذي ورد ذكره في القرآن واستدل على ذلك بأن أهل ياجوج ومأجوج [٥] كانوا محصورين بين سدين

واعترف بعض المصادر الاوروبية بان لا سور في الصين اقدم من سورها المعروف لنا الآن ومن هؤلاء ادجار جيل [٦]

وقد اشتد لغط الكتاب العرب والاجانب حول من بنى سور الصين فمنهم من قال ان اسمه الاسكندر ولا ندري من أين جاؤوا بهذا الاسم الذي لم يرد ذكره في المصادر الصينية ولا في القرآن . وقد ذكر الطبري [١] حديثاً صرَّح فيه بأن باني السور هو ملكٌ

---

(١) يبلغ طوله ٢٠٠٠ لي (واللي هو الميل الصيني ويقدر بنحو ثلث ميل انكليزي) وقد تهدمت بعض أجزائه (٢) راجع كتاب « الخلاصة الادبية الصينية العلمية » طبع جين دو كتب بالصينية طرف البعثة الصينية بالقاهرة (٣) ج٥ ص ٥٢٩ (٤) انظر كتاب « الجواهر » ج ٩ ص ٢٠٤ (٥) وقد كانوا موضع جدل بين الكتاب وكثيراً ما ذكرهم جغرافيو العرب وهم قبائل من المغول والتتر (٦) راجع كتاب "The Great Wall of China" (بجرائية رقم ٥١٧٣ بدار الكتب بالقاهرة) (٧) الطبري ج ١٦

الاسكندرية كما أورد الزمخشري صاحب الكشاف [١] ما يفيد هذا المعنى. ولكن الاسكندر الاكبر المقدوني توفي سنة ٣٢٣ ق . م [٢] في حين ان السور بني في سنة ٢١٤ ق . م [٣] ، ثم ان الاسكندر الاكبر لم يتعد نهر السند شرقاً [٤]، وقد تعرض الاستاذ عزيز خانكي بك [٥] لهذا الموضوع فلخص معظم آراء العلماء المحدثين في هذا الصدد واستقر به الرأي على ان باني سور الصين ليس الاسكندر المقدوني تاركاً الامر لاهل البحث والتنقيب ويقول الاستاذ ريفون جست Rhuvon Guest في مقال لهُ [٦] ان تسمية الاسكندر الاكبر بذي القرنين أدى الى الخلط بينه وبين باني سور الصين « النبي المعروف بهذا الاسم » وقد بسط الاستاذ عزيز خانكي بك سبب تسمية الاسكندر الاكبر بذي القرنين نسبة الى التاج الذي تقلده في مصر

ولقد اتفقت المصادر الصينية والاوروبية التي تبحث في تاريخ الصين على أن الامبراطور الصيني تشن الذي يعد أعظم أباطرة الصين خاصة والعالم عامة هو منشىء ذلك السور [٧] فقد كان يتمتع ببسطة واسعة استغلها في النهوض ببلاده وهو الذي اشتق الاوربيون من اسمه اسم الاراضي الصينية [٨] واليه يرجع الفضل في كشف بلاد اليابان واستعمارها . وقد امتدحهُ قداسة البابا وأثنت عليه معظم المؤلفات الاوروبية ولكن للاسف لم يقدره مواطنوه فلم يوفوه حقهُ من الاعتراف بالجميل ، ومن اعماله انهُ صادر المؤلفات التي تبحث في العلوم غير المفيدة في نظره والمشجعة على الرجوع الى الماضي خصوصاً ما كان يبحث منها في التاريخ وانذر معارضيه من اهل المدارس بالتنكيل والعذاب ، فدفن عدداً منهم غير قليل احياء ، ويقول ادجار جيل انهُ دفن اجسامهم دون رؤوسهم فمن اسلم لرغبته انقذ ومن أصرَّ على العصيان قضى نحبهُ ، ومع ذلك فقد أبقى على بعض المؤلفات التي تبحث في التنجيم والزراعة والطب لما لها من فائدة ، ويقول اعداؤه المؤرخون الكنفوشيوسيون انهُ احرق ما أحرق منها

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٢ (٢) راجع كتاب « Ancient Times » تأليف برستد ص ٤٣٧
(٣) راجع Encyc. Brit. ج ٥ ص ٥٢٩ (٤) انظر كتاب «The Great Alexander» تأليف روبسون Robson وكتاب « Histoire d'Alex. Le Grand » لمؤلفه مهشن Méchin الى الفرنسية عن الالمانية دريسون Droyson (٥) كتاب « الاسكندر الاكبر » (٦) راجع دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ١٢٨ (٧) ولا يصدق القول بأنه ليس في الصين أقدم من هذا السور لانكنا القول بأن الامبراطور تشن هو ذو القرنين الذي ورد ذكره في القرآن وقد رأيت في مؤلف صيني اسمه الخلاصة الادبية لجين دو سورة قيمة اعتقد ادراك الصين ارتفاعها تنتهي بطرفين على شكل قرن الحيوان
(٨) للصين عدة اسماء تاريخية في المؤلفات الصينية القديمة « Hwa Hia » ومعناها The Flowery Hia ، وسميت أيضاً « Chung Kwo » ومعناها The Middle State وسماها بطليموس وغيره من الجغرافيين القدماء « Serica, Sera Seres » وفي التقارير الشرعية عرفت باسم « Cathay » ويسميها الروس Kitai (راجع Chamber's Encyc. جزء ٣ ص ١٨٦ لذي البحث عن كلمة China)

ليقضي على سير من سبقوه ، وليكون أول الحاكمين . والواقع ان الكتب احرقت بحجة الحض على اتباع النظام الاقطاعي الذي كان الامبراطور تشن يرى انهُ لا سبيل الى توحيد الامة ما دام هذا النظام البغيض قائماً ، ولم يكن يخشى اعادة طبع الكتب ولكن الطلبة اعدموا لمحاولتهم قلب النظام الجديد

ويذكر ادجار جيل أن السبب في بناء السور يرجع الى اعتقاد الامبراطور تشن في التنبؤات إذ بلغه ان عرشه سيقوض على أيدي المغول فأسرع الى تعبئة جيش يبلغ عدده ثلثمائة الف رجل للعمل في اقامة ذلك السد

ويبدو لي انه أقام ذلك السد لصد غزوات المغول والتتار وكذلك لتخليد ذكراه والتقرب الى الشعب بعمل يحميهم من المغيرين ويُنسيهم أعمال الارهاب والتعذيب ، كما ان مثل ذلك المشروع الذي يتطلب وقتاً طويلاً وأيدي عاملة كثيرة لخير شيء يشغل به معارضيه وأفضل منفى لمن فكر في الثورة عليه

والواقع ان الامبراطور تشن بعد أن تم لهُ اخضاع أمراء الولايات الصينية [1] فكر في قهر التتار بطريق سلمي لأنه وجد من العبث التغلب عليهم واخضاعهم بالقوة فهمَّ بانشاء ذلك السور ليفصل بين الزراعة في الشمال والزراع في الجنوب ويمنع عن سكان الأودية المطمئنين غارات أهل الصحراء .

وقد امتاز عصر بناء سور الصين بالاستبداد بالرأي وسعة النفوذ والسلطان وإلاَّ لما استطاع الامبراطور الفريد الاول والذي شبهه ادجار جيل بنابليون القيام بمثل ذلك العمل الشاق . فقد بسط نفوذه على مساحة تعادل نصف اوروبا تقريباً تسكنها عناصر كانت تموج وتضطرب كالبركان الثائر فأنزل عليهم السكينة وأدمجهم في أمة متماسكة تحمل اسمه

ولم يشارك الامبراطور تشن قومه في اتباع مذهب كنفوشيوس بل اتبع عقيدة أخرى لم يذكرها المؤرخون الصينيون الكنفوشيوسيون أعداؤه وأعداء عقيدته ووصفوه بأنه كان جبَّاراً وما كان إلا حازماً يريد الاصلاح وما زالت بلاده في حاجة الى رجل عظيم مثله في تلك الظروف العصيبة

واذا ما قارنا تشن بالاسكندر [2] المقدوني وجدنا ان كلاً منهما نشأ في ولاية صغيرة ثم بسط نفوذه على مساحات شاسعة ، فقد كانت مقدونيا ولاية في طرف بلاد اليونان بسطت

(١) هذه الولايات هي Yen — تشو Chou — وي Wie — تشن Chin — هان Han — جي Chi — تسو Tsin : نقلا عن خرطة في مؤلف صيني اسمه شيه جي شبه = تاريخ ، جي = مذكرة أي المذكرة التاريخية .

نفوذها على ما جاورها وامتد سلطانها على معظم القارة الاسيوية وذلك بفضل الاسكندر الاكبر المقدوني شبيه تشن الشاب الامبراطور الذي سرعان ما غزا تلك الامبراطورية من شمالها الى جنوبها ومن غربها الى شرقها وامتدت فتوحاته الى اليابان لا للبحث عن اكسير الحياة كما يسمه المؤرخون الصينيون أعداؤه وأنصار الكنفوشيوسية

وكان يعاون الامبراطور تشن نخبة من الوزراء نذكر من بينهم يول هصي الذي خدم مولاه الامبراطور سبع سنوات فلما مات بكاه القوم وأغلق التجار حوانيتهم حداداً عليه ، وشانج يانج الذي عمل على الغاء قوة سيده ووضع النظم الادارية من قانون وموازين ولكن الشعب لم يقدره فانقضوا عليه ومزقوه اربا ، وشانج الاول وكان عالماً بالنظم الادارية ، وفان شو الذي ناصر مولاه في سياسة الغزو والفتح ، ولوبي وي الذي كان وصيًّا على الامير تشن في حداثة سنه ومنحته أم الامبراطور والنائبة عن ابنها في الحكم اسم شنج فو أي الوالد الآخر ولذلك سمي الامبراطور تشن سانج أو ليوشنج[1] ، والمستشار العظيم لي صيه الذي تفانى في خدمة مليكه وأنجز ما تأخر من طلبات سيده وقضى قضاء تامًّا على نظام الاقطاع ووضع بالاشتراك مع مليكه خارطة للامبراطورية الصينية الموحدة ، وكان هذا الوزير من أعظم المشجعين على اقامة سور الصين وعهد أمر الاشراف على بنائه الى القائد الحربي منج تين مخترع القلم الصيني

وقبل وفاة ذلك الامبراطور الرحالة أعدّ الاساتذة العلماء المقربون اليه ضريحاً لجثمانه ويذكر الصينيون عدة قصص عما تقوم به روح هذا الامبراطور من مساعدات لمواطنيها ونسبوا اليه المعجزات فمن قائل ان أنواراً تنبعث من قبره ومن قائل ان الامبراطور قد دفن في قصر ووضع جثمانه في تابوت عائم على نهر من الزئبق لا يجرؤ أحد على لمسه لأنه لا يستقر في مكانه وان كل من حاول لمسه أصابته حربة . ولذا فكر بعض الجنود في ارتداء ملابس حديدية كي لا تؤثر فيهم الحربة وحاولوا لمس التابوت فعجزوا واذا بصيحة كالرعد فغادروا المكان وخرجوا خائفين

***

وقد عثر المنقبون عن الآثار أخيراً في تلك البلاد على لوحة امتدح فيها ثلاثة من ملبة الامبراطور مولاهم وعنوه ناشر العدل القاضي على الثورات محب الامن وكان ذلك بعد أن أذن لهم مليكهم وقد ذيلت تلك اللوحة بامضاء لي صيه والوزير شوشي والراقب تن .

---

(١) وقد أدى ذلك الى وجود شك في نسبة الامبراطور تشن الى ابيه كما ادعى ذلك بعض المؤرخين الصينيين